روبنصن كروزو

— ٣ —

وَلَمَّا أَيْقَنَ الرَّجُلُ الْهَارِبُ ، أَنِّى لاَ أُضْمِرُ لَهُ شَرًّا ، رَكَعَ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِقَدَمِى ، وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ فَعَلَ ذٰلِكَ ، كَعَهْدٍ مِنْهُ ، بِأَنَّهُ سَيَكُونُ عَبْدًا لِى إِلَى الْأَبَدِ . وَكَانَ لاَ يَفْتَأُ يَنْظُرُ إِلَى جُثَّةِ الرَّجُلِ ، الَّذِى قَتَلْتُهُ رَمْيًا بِالرَّصَاصِ ، كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَفْهَمَ سِرَّ الْمَوْتِ بِهٰذِهِ الطَّرِيقَةِ الْغَرِيبَةِ ! وَذَهَبَ إِلَى حَيْثُ الْجُثَّةُ . وَأَخَذَ يُقَلِّبُهَا ، وَيُحَدِّقُ النَّظَرَ فِى الثَّقْبِ ، الَّذِى أَحْدَثَتْهُ الرَّصَاصَةُ ، ثُمَّ حَفَرَ حُفْرَتَيْنِ ، وَدَفَنَ الْجُثَّتَيْنِ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ تَبِعَنِى إِلَى كَهْفِى ! وَهُنَاكَ أَعْطَيْتُهُ خُبْزًا وَفَاكِهَةً . وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَ ، أَفْهَمْتُهُ أَنَّ اسْمَهُ سَيَكُونُ « جُمْعَةَ » (وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِى أَنْقَذْتُهُ فِيهِ) . ثُمَّ عَلَّمْتُهُ بِضْعَةَ أَلْفَاظٍ وَمَعَانِيهَا ، فَبَدَأَ يَقُولُ : « يَا سَيِّدِى » ، وَ « نَعَمْ » وَ « لاَ » . ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ بَعْضَ الْمَلاَبِسِ ، وَكَانَتْ تُضَايِقُهُ أَوَّلَ الْأَمْرِ ، وَلٰكِنَّهُ أَلِفَهَا بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ ، وَأَقَمْتُ لَهُ خَيْمَةً خَاصَّةً بِهِ ، لِيَنَامَ فِيهَا ، أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَنَامُ فِى الْمَخْزَنِ ، بَعْدَ أَنْ أُغْلِقَ بَابَهُ عَلَىَّ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَاعٍ لِكُلِّ

ثم أمسك بقدمى ووضعها على رأسه

هٰذَا الْحَذَرِ مِنْ جَانِبِى ؛ فَالرَّجُلُ كَانَ شَدِيدَ الْإِخْلاَصِ لِى ، يُحِبُّنِى ، كَمَا يُحِبُّ الطِّفْلُ وَالِدَهُ ! وَكَانَ هَادِئَ الطَّبْعِ ، لاَ يَغْضَبُ أَبَدًا .

وَكَانَتْ بُنْدُقِيَّتِى ، مَوْضِعَ خَوْفِهِ وَدَهْشَتِهِ

عَلَى الدَّوَامِ ! فَكَانَ يَعْتَبِرُهَا إِلَهَ قَادِراً عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . وَكَثِيراً مَا كَانَ يُوَجِّهُ إِلَيْهَا الْكَلَامَ ! طَالِباً مِنْهَا أَلاَّ تَقْتُلَهُ . وَانْقَضَتْ سَنَةٌ ، كَانَتْ أَبْدَعَ مَا قَضَيْتُ عَلَى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وَاسْتَطَاعَ « جُمْعَةُ » فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ ، أَنْ يَتَعَلَّمَ أَسْمَاءَ الْأَمَاكِنِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي حَوْلَنَا . وَكَانَ أَحَبَّ شَيْءٍ لَدَيَّ ، أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ ، وَيَتَحَدَّثَ إِلَيَّ ! وَكُنْتُ أَجِدُ فِي ذَلِكَ تَسْلِيَةً كَبِيرَةً ، بَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ عِدَّةَ سِنِينَ ، لَمْ أَسْتَعْمِلْ فِي أَثْنَائِهَا لِسَانِي .

وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ ، طَلَبْتُ إِلَى « جُمْعَةَ » أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْبَحْرِ ، عَسَاهُ يَصْطَادُ سَمَكاً لَنَا ! وَمَا كَادَ يَغِيبُ عَنِّي قَلِيلاً ، حَتَّى عَادَ يَجْرِي بِسُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ . وَهُوَ يَصِيحُ : « يَا سَيِّدِي أَخْبَارٌ سَيِّئَةٌ ، ثَلَاثَةُ قَوَارِبَ ! » وَكَانَ شَدِيدَ الِاضْطِرَابِ وَالْخَوْفِ ؛ لِأَنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ الْمُتَوَحِّشِينَ قَدْ جَاءُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ لِيَتَعَقَّبُوهُ وَيَا كُلُوهُ ! فَهَدَّأْتُ رَوْعَهُ ! وَأَدْخَلْتُ عَلَى نَفْسِهِ الطُّمَأْنِينَةَ قَائِلاً : « إِنَّ لَدَيْنَا بَنَادِقَ كَثِيرَةً ! وَسَوْفَ نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى نَقْضِيَ عَلَيْهِمْ . مَهْمَا بَلَغَ عَدَدُهُمْ . وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ! » عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لِي : « إِنِّي أَمُوتُ مِنْ أَجْلِكَ يَا سَيِّدِي ، اذا أَمَرْتَ بِذَلِكَ . » وَأَعْدَدْتُ بِنْدُقِيَّتَيْنِ لِجُمْعَةَ وَثَلَاثَاً لِي . وَحَمَلْنَا مَعَنَا كِيساً مَمْلُوءاً بَارُوداً ؛ وَقَصَدْنَا إِلَى التَّلِّ ، فَأَشْرَفْنَا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْمُتَوَحِّشُونَ ، وَكَانُوا عِشْرِينَ رَجُلاً ؛ مَعَهُمْ ثَلَاثُ ضَحَايَا ! ! وَقَدْ أَثَارَ فِيَّ ذَلِكَ الْمَنْظَرُ غَضَباً شَدِيداً وَوَضَعْتُ الْخُطَّةَ لِلْقَضَاءِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَوَحِّشِينَ . فَدَخَلْتُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ ، وَ« جُمْعَةُ » يَتْبَعُنِي ، وَاخْتَرْتُ مَكَاناً خَلْفَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ ، اسْتَطَعْتُ مِنْهُ أَنْ أَرَى بِوُضُوحٍ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَوَحِّشِينَ . جَالِسِينَ فِي دَائِرَةٍ ، فِي انْتِظَارِ إِحْدَى ضَحَايَاهُمْ ! وَشَاهَدْتُ أَرْبَعَةً ، غَيْرَ هَؤُلَاءِ ، يَتَجِهُونَ نَحْوَ الْأَسِيرِ ، لِيَفُكُّوا وَثَاقَهُ ، تَمْهِيداً لِقَتْلِهِ ؛ فَانْتَهَزْتُ تِلْكَ الْفُرْصَةَ ، وَصَوَّبْنَا عَلَيْهِمْ بَنَادِقَنَا ؛ فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ ثَلَاثَةً ، وَجُرِحَ خَمْسَةٌ ، وَاسْتَوْلَى الرُّعْبُ عَلَى الْبَاقِينَ ، فَوَقَفُوا حَيَارَى ، لَا يَدْرُونَ مَاذَا حَلَّ بِهِمْ ، وَلَا مَاذَا يَعْمَلُونَ . بَعْدَ ذَلِكَ ، تَنَاوَلْنَا بَنَادِقَنَا الْأُخْرَى ؛ وَأَطْلَقْنَاهَا عَلَيْهِمْ ، فَقَتَلْنَا خَمْسَةً

وَجُرِحَ كَثِيرٌ آخَرُونَ ؛ أَمَّا الْبَاقُونَ فَأَخَذُوا طَرِيقَهُمْ إِلَى الْقَوَارِبِ ، وَهُمْ يُصِيحُونَ صَيْحَاتٍ عَالِيَةً ، وَطَلَعْتُ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ ؛

بينما توجهت إلى الأسير لاحل وثاقه .

وَصَرَخْتُ فِيهِمْ صَرْخَةً عَالِيَةً ، ثُمَّ أَمَرْتُ « جُمْعَةَ » أَنْ يُطْلِقَ عَلَيْهِمُ الرَّصَاصَ ، بَيْنَمَا تَوَجَّهْتُ أَنَا إِلَى الْأَسِيرِ ، لِأَحُلَّ وَثَاقَهُ ! وَتَبِعَهُمْ « جُمْعَةَ » وَأَغْلَبُ ظَنِّي أَنَّهُ قَتَلَهُمْ جَمِيعاً ، مَاعَدَا وَاحِداً .

وَمَا كِدْتُ أَضَعُ يَدِي عَلَى الْأَسِيرِ ، حَتَّى أَخَذَ يَصِيحُ خَوفاً ، فَنَادَيتُ « جُمْعَةَ » وَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ بِلِسَانِهِ ، وَيُطَمْئِنَهُ . وَمَا كَادَ يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَى وَجْهِ الْأَسِيرِ ، حَتَّى أَكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ ، يُقَبِّلُهُ وَيَصِيحُ ، ثُمَّ أَخَذَ يَرْقُصُ وَيُغَنِّي حَوْلَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَأَنَا لَا أَدْرِي لِهَذَا سَبَباً ، حَتَّى أَفْهَمَنِي أَنَّ الْأَسِيرَ وَالِدُهُ ! فَهَنَّأْتُهُ عَلَى تِلْكَ الْمُصَادَفَةِ السَّعِيدَةِ ، وَأَمَرْتُهُ فَأَحْضَرَ لَهُ مَاءً وَخُبْزاً وَفَاكِهَةً . وَبَعْدَ أَنْ قَضَى مَعَنَا بِضْعَةَ أَيَّامٍ ، عَادَ إِلَى بِلَادِهِ ، فِي أَحَدِ الْقَوَارِبِ ، الَّتِي تَرَكَهَا الْمُتَوَحِّشُونَ . وَحَدَثَ بَعْدَ أُسْبُوعٍ مِن عَوْدَةِ وَالِدِ « جُمْعَةَ » . أَنْ رَأَيْنَا عَلَى بُعْدٍ قَارِباً صَغِيراً يَقْتَرِبُ مِن الْجَزِيرَةِ ، وَظَنَنَّاهُ يَحْمِلُ بَعْضَ الْمُتَوَحِّشِينَ ، وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَفْتُ مِن قِمَّةِ التَّلِّ ، رَأَيْتُ سَفِينَةً كَبِيرَةً عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِن الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ ، وَكَانَ يُرَفْرِفُ عَلَيْهَا الْعَلَمُ الْإِنْجِلِيزِيُّ ! وَأَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَحَدَ قَوَارِبِهَا . وَاسْتَوْلَى عَلَيَّ فَرَحٌ ، وَلَكِنْ فِي شَيْءٍ مِن الدَّهَشِ وَالشَّكِّ ! ! وَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ فِيمَا عَسَاهُ أَنْ يَحْمِلَ سَفِينَةً إِنْجِلِيزِيَّةً عَلَى ارْتِيَادِ تِلْكَ الْأَمَاكِنِ النَّائِيَةِ ! ! وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ، كَانَ الْقَارِبُ قَدِ اقْتَرَبَ مِن الشَّاطِئِ ، وَكَانَ فِيهِ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلاً إِنْكِلِيزِيّاً بَيْنَهُمْ ثَلَاثَةٌ مَوْثُوقُونَ ! وَلَمَّا رَسَا الْقَارِبُ . قَفَزَ خَمْسَةٌ مِنْهُمْ إِلَى الْبَرِّ ، ثُمَّ سَاقُوا الثَّلَاثَةَ الْمَوْثُوقِينَ ، إِلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِن الشَّاطِئِ

وَأَخذ الجَمِيعُ يَتَحَادَثُونَ ، وَأَنَا أُفَكِّرُ فِيما عَسَاهُ أن يَكُونَ شَأنُهُمْ .

وَحَدَثَ فى أثناء ذلك ، أن انحسَرَ الماء عن الشاطِىء بِسَبَبِ الجَزْرِ ، وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ، وَظَلَّ القَارِبُ ، عَلَى اليَابِسِ فَتْرَةً طَوِيلَةً ؛ حتى تَنَبَّهَ أَحدُ الرِّجَالِ ، فأسْرَعُوا إلَى القارِبِ ، وحَاوَلُوا دَفْعَهُ إلَى المَاء فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا . وَانتهزتُ تلك الفُرْصَةَ ، وتَقَدَّمْتُ من الأسْرَى وَسَأَلْتُهُمْ فى رِفْقٍ : « من أنتمْ أيها الناسُ ؟ » وَكَانَ دَهَشُهُمْ عَظِيماً عِنْدَ مَا رَأَوْنِى وَسَمِعوا صَوْتِى ، حتى لَقَدْ سَكَتُوا وَلَمْ يَنطقوا بِشَىْءٍ ، فَسَأَلتهمْ مَرَّةً أُخرَى : « من أنْتُمْ ؟ وَهَلْ أنتم فى حَاجةٍ الَى المَعونةِ ؟ وَأخيراً أجابنى وَاحدٌ مِنهمْ قَائلاً : « كُنْتُ رُبَّاناً لِتلْكَ السَّفينةِ ! فَثارَ عَلَىَّ رِجَالِى ، وَهَدَّدونِى بِقَتْلِى ثُم أَلقونِى فى تِلكَ الجَزِيرَةِ المَهجورَةِ ، وَأما هَذَانِ الأَسِيرانِ ، فَأَحدهمَا ضَابِطُ السَّفينةِ ، وَالآخَرُ أحدُ رُكَّابِهَا ! » وَبَعْدَ أن فَهِمتُ كُلَّ شَىْءٍ فَكَكْتُ وَثَاقَهُمْ ، ثُمَّ ذَهبتُ إلَى مَنزِلِى ، وَحَمَلْتُ مَعِى ثَلاثَ بَنَادِقَ ، وَقَدَّمْتُهَا لِلرُّبَّانِ وَرِجَالِهِ . وَكَانَ الرِّجَالُ الآخَرونَ ، الذينَ تَقَلَّوا الرُّبَّانَ ومن مَعَهُ نِيَاماً عَلَى الشاطِىء فى انْتِظارِ المَدِّ .

وَحدثَ فى أثناء ذلِكَ ، أنِ استيقظَ اثْنانِ مِنهمْ ، فَقالَ الرُّبَّانُ : « حَسَناً ! سَنَطلقُ النارَ عَلَى الآخرينَ ، فَهمْ من زُعماء الثورَةِ ! » وَجرَتْ مَعركَةٌ قَصيرةٌ ، قُتلَ فيها الزُّعماء ؛ وَقبضَ عَلَى جَميعِ الآخرينَ . وَأخذَ الرُّبانُ عَليهمْ عَهداً ، بأنْ يُساعدوهُ فى الاسْتيلاء عَلَى السَّفينةِ . وبَعدَ أن تَمَّ لَنا ذلكَ النصرُ ، قَصصْتُ حِكَايَتِى عَلَى الرُّبَّانِ . فَأَثَّرَ كَثيراً وَأَسدَى إلَىَّ شُكْراً جَزِيلاً عَلَى مَا قُمتُ بِهِ نَحوَهُ ؛ ثُمَّ قَدَّمتُ للرُّبانِ وَرِجالِهِ طَعاماً وَماء فَأكلُوا ثُم جَلَسنا نَضَعُ خُطةً لِلاسْتيلاء عَلَى السَّفينةِ ، وَكَانَ المُنتظَرُ طَبعاً أن تُرسِلَ السَّفينةُ بَعثةً أُخرى من الرِّجالِ ، لِلبحثِ عَنِ البَعثةِ الأُولَى ، وَالوقوفِ عَلَى مَا حَلَّ بِهَا وَحدثَ مَا تَوَقعناهُ ؛ فوصَلَ إلَى الشاطِىء قَاربٌ آخَرُ بِهِ أكْثَرُ من عَشَرَةِ رِجَالٍ . وَكَانَت الخُطَّةُ ، أن نُحدِث فى القاربِ الأَوَّلِ ثقباً كَبيراً ، حَتَى لا يَستعملَهُ أحدٌ ؛ ثُمَّ نَستولِىَ عَلَى القَاربِ الآخَرِ ، بَعدَ أنْ نَقضِىَ عَلَى رِجالِهِ ، وَقدْ تَمَّ لَنا ذلكَ بِنجاحٍ عَظِيمٍ ، وَأفلحَ الضابِطُ وَمعهُ «جُمعةُ»

فى تضليلِ الرِّجالِ ، وحملِهِمْ عَلَى السَّيرِ مَسَافَاتٍ طَوِيلَةً ، بِمَا كَانَا يُحدثَانِهِ مِنْ صَوتٍ ، وَاستغاثَةٍ ، جَعلتهمْ يَظنونَ أنهُمْ وَراءَ زُمَلائِهِمْ المفقودينَ . أما الرُّبانُ وَأنا فَقَدِ استولَينَا عَلَى القاربِ الآخرِ وَأخفيناهُ بَعدَ أن بَاغتنَا مَنْ فيهِ من الرِّجَالِ ، وَاضطَرَرْناهُمْ ، لِلتسليمِ والانضمامِ لَنَا ، وَلَمَّا عادَ بَقيةُ الرجَالِ ، وَلَمْ يَجِدُوا أثراً لِلقَارِبِ فَزِعوا فَزَعاً شَديداً ، وَقَالَ بَعضهُمْ لِبعض : « إن الجَزيرةَ ، لَابُدَّ ، مَسحورةٌ تَسكُنُهَا الشياطينُ ! » وَفى تِلكَ الفرصةِ السَّانِحَةِ ، أطْلقنَا عَليهِمُ النَارَ ، وَقَتَلنَا مِنهُمْ ثَلاثَةً ، مِن يَدِهِمْ بَعضُ زُعماءِ الثورَةِ أيضاً .

وانتقلنا جميعا إلى السفينة

وَبعد أن أصلحنَا القاربَ الأولَ رَكِبهُ الرُّبانُ وَمَعهُ الضابطُ وَبَعضُ الرِّجَالِ وَقَصدُوا إلَى السَّفينةِ الرَّاسيةِ فى عَرضِ البَحرِ ، لِلاستيلاءِ عَليهَا . وَكَانَ لَا يَزَالُ عَلَى ظَهرِهَا بَعضُ البَحارةِ ، وَمعهمُ الزَّعيمُ الأَكبرُ ، وَلما اقتربَ الرُّبَّانُ ، من جانبِ السفينةِ طَلبَ من أحدِ رِجالِهِ ، أن يُنادِىَ بعضَ البَحارةِ ، وَيصيحَ فيهمْ أن قد وَجدَ زُملاءهُ بِالجَزيرةِ . وَتَمَّ بِذَلِكَ صُعُودُ الرُّبَّانِ ومن مَعهُ إلى السَّفينةِ ، وَهناكَ قصدوا إلى غُرفةِ الزعيمِ فَقتلُوهُ ، وَاستسلمَ بَقيةُ الرِّجالِ ، فَتمَّ بِذلكَ الاستيلاءُ عَلَى السَّفينةِ ، بِكلِّ ما فيها . وَأطلقَ الرُّبانُ سَبعَ طلقاتٍ فى الهوَاءِ . إيذاناً بِذلكَ !

وَفى صَباحِ اليومِ التالى . زَارَنى الرُّبانُ فى مَنزِلى . وَأعلنَ لِى ، فى تأثُّرٍ شَديدٍ ، بأن السَّفينةَ وَمن فيهَا ، تحتَ تصرُّفى فَشكرتهُ كثيراً وَجمعتُ أمتعَتِى . وَحملتُ مَعى بعضَ مَا صَنعتُهُ فى الجَزيرةِ . لِيكُونَ تَذكاراً لِلسنينِ التى قَضيتُها بِها . وَانتقلنا جَميعاً . وَمعنا « جُمعة » الخَادِمُ المُخلِصُ الأمينُ . إلى السَّفينةِ . وأبحَرْنا الى الوَطنِ العزيزِ . بَعدَ أن قَضيتُ بالجَزيرة ثمانى وَعشرينَ سنةً وَشَهرينِ وَسبعةَ عَشرَ يَوماً ! !